الفرع الثالث

الوقف وكفالة الدعاة

"المتأمل في أحوال الدعاة اليوم وما يحتاجونه من نفقات، وما تحتاجه المناشط الدعوية المتعددة من مبالغ مالية ضخمة حتى تستطيع القيام بأدوارها ووظائفها على الوجه المطلوب يدرك أهمية الوقف كمؤسسة اقتصادية دعوية قادرة على مواجهة تلك المتطلبات" (١) .

"وكانت مصارف الوقف توزع حسب شرط الواقف؛ ففي مجال التعليم كان ينظر إلى المرفق التعليمي فأول مصاريف ريع الوقف هو ما تحتاجه المدرسة من صيانة وإصلاح وتأمين وأثاث وماء وزيت ومصابيح وشمع ونحو ذلك، والتقصير في ذلك يحول دون استمرار المؤسسة في مهمتها الأصلية.

ثم بعد ذلك ينفق من ريع الوقف على القائمين على المدرسة وتسميهم المصادر الوقفية بأصحاب الوظائف مثل: المتولى (الناظر) والقيِّم والإمام والجابي والعامل والصناع والبناء؛ فهم أول المستحقين أهمية بعد استقطاع احتياجات عمارة المدرسة" (٢) حيث « أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بأنه إذا رأى الناظر تقديم أرباب الوظائف الذين يأخذون على عمل معلوم- كالإمام والمؤذن- فقد أصاب في ذلك إذا كان الذي يأخذونه لا يزيد على جعل مثلهم في العادة، كما أنه يجب أن يقدم الجابي والعامل والصانع والبناء، ونحوهم ممن يأخذ على عمل يعمله في تحصيل المال، أو عمارة المكان، يقدمون بأخذ الأجرة والإمامة والأذان شعائر لا يمكن إبطالها ولا تنقيصها بحال، فالجاعل جعل مثل ذلك لأصحابها يقدم على ما يأخذه الفقهاء، وهذا بخلاف المدارس والمفيد والفقهاء، فإنهم من جنس واحد" (٣) .

---

(١) انظر: الوقف وأثره في نشر الدعوة وجهود المملكة العربية السعودية في هذا المجال -د. عبد الرحيم بن محمد المغذوي-٥٦-٥٧ - ط١- ١٤٢٢هـ- مؤتمر الأوقاف الأول بالمملكة العربية السعودية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة.

(٢) الإيمان والاهتمام بالوقف بالعلم والتعليم- أحمد بن محمد المغربي ص٤١-٤٢.

(٣) مجموع الفتاوى - شيخ الإسلام ابن تيمية ٣١/٢٢.

أمـــا عـــن المدرسين والطلاب:"فتصرف مستحقاتهم بعد استيفاء جميع ما سبقهم؛ لأن الأصـــل أنهم يعطون من ريع الوقف ما يعطون على سبيل المعونة على نشر التعليم وعلى طلبه ولـــيس على سبيل أنهم يؤدون عملاً يأخذون أجراً مقابله، ولا تقدم بعضهم على بعض، فإنهم من جنس واحد بمعنى أن تقسم استحقاقاتهم نسبياً كما شرط الواقف دون تفاضل بينهم.

و لم تقتـــصر خـــدمات المؤسسة العلمية الوقفية على تأمين بيوت العلم للصغار والكبار وتـــأمين الكـــتاب الذي هو أحد وسائل المعرفة، بل إن أكثرية المدارس كانت تؤمن خدمات رعاية منسوبيها من مدرسين وطلاب.

ونظرًا للأهمية المادية لهذه الرعاية، فقد اشترط الواقفون في كتب الوقفية أعدادًا معينة من الطلاب حتى لا تزيد أعباء المؤسسة الوقفية في الإنفاق" [1] .

وهـــذا مما يؤكد الأهمية المادية للوقف في الإنفاق على طلاب العلم والعلماء، لأن ذلك يـــسهم في إعـــداد وتأهيل الدعاة بالدعم المستمر والمتنامي كي تتم العملية التعليمية بالشكل المناســـب الذي تتطلبه الظروف في كل عصر ومصر وفق خطط مرسومة مبنية على ميزانيات معتمدة.

وفي الـــسابق كانت المدارس وما بها من طلاب ومدرسين ينالون اهتمام الوقف؛ فعلى ســـبيل المثال "كانت المدرسة المستنصرية ببغداد تؤمن لمنسوبيها الخبز واللحم والنفقة، وكانت المدرســـة الحجازية بالقاهرة تؤمن للطالب خمسة أرغفة خبز يومياً مع مبلغ من المال، إضافة إلى كسوتي الشتاء والصيف وكعكاً في عيد الفطر ولحماً في عيد الأضحى وطعاماً مطبوخاً (وجبة ساخنة) في رمضان.

وكـــان للمدرسة العمرية بالقدس وقف يفرق كل يوم ألف رغيف خبز أو نحوه على المنسوبين وأطعمة يومية منها الجريشة في الشتاء، إلى غير ذلك من الأطعمة المتنوعة التي كان يتم

---

(١) انظر: الإيمان واهتمام الوقف بالعلم والتعليم- أحمد بن محمد المغربي-ص٤٢-٤٤ - الدور الاجتماعي للوقف-د. عبد الملك أحمد السيد -ص ٢٤٢.

تـــوزيعها، وكذلك أباريق للوضوء وسخانة يسخن فيها الماء أيام البرد، وبلغت العنـــــاية والرعاية للمدرسين أن كثيراً من الوقفيات بلغت رواتب البعض منهم ستين ألف درهم سنوياً، وخصـــصت لهـــم مخصصات للانتقال والإنفاق على الخيول والبغال التي تنقلهم بين مساكنهم والمدارس التي يدرسون فيها" [1] .

"لقـــد قـــام الوقـــف في مختلف العهود الإسلامية بدور فاعل، ونهض بدور اجتماعي واقتـــصادي وثقـــافي كـــان له أثره في تخفيف العبء على الأجهزة المسؤولة في الدولة وتقليل الـــنفقات المالـــية المتعلقة بالموازنة العامة لها وكفل للعديد من طلبة العلم والعلماء أرزاقهم كي يتفرغوا لشؤونهم العلمية.

إذ ينبغـــي لطالب العلم ألا يشتغل بشيء آخر غير العلم ولا يعرض عن الفقه، وهكذا رأيـــنا الدعاة والعلماء والفقهاء وطلبة العلم في مختلف العصور قد استفادوا من الوقف وأصبح معيـــناً لهـــم على التفرغ للطلب والتحصيل والدعوة إلى الله وتبليغها والجهاد في سبيله، فأدى الوقف دوره في هذا المجال" [2] .

"إن مما يسترعي النظر في تاريخ الوقف الإسلامي كثرة الأوقاف على المساجد، وبلغ من ضـــخامة هذه الأوقاف أن خصص لها ديوان أطلق عليه ديوان أحباس المساجد مهمته تسجيل هـــذه الأحـــباس في ســـجل خاص، وكان الملوك يتنافسون في عظمة المساجد التي يؤسسونها وكانـــت هـــذه الأحباس ترصد لصيانة المساجد، ودفع مرتبات العاملين بها من أئمة ووعاظ وخـــدم، وقد جاء في حجة وقف الأشرف برسباي [3] على الجامع الذي بناه بناية سرياقوس: لـــرجل من أهل الخير والدين صالح للخطابة بالجامع الكائن بمنشأة سرياقوس في كل شهر من شهور الأهلة سبعمائة درهم، نصفها ثلاثمائة وخمسون درهماً، على أن يباشر وظيفة الخطابة في

---

(١) انظر: الدور الاجتماعي للوقف — د. عبدالملك أحمد السيد ص ٤٤-٤٥.

(٢) انظر: الوقف مشروعيته وأهميته الحضارية-د. أحمد بن يوسف بن أحمد الدرويش ص٣٨-٣٩.

(٣) برســـباي شركـــسي الأصـــل، تولى حكم مصر سنة ٨٢٤هـــ وأطلق على نفسه الأشرف برسباي، يقول بعض المـــؤرخين: إنـــه كـــان ملكاً جليلاً مبجلاً منقاداً للرعية يحب أهل العلم مهيّبا مع لين جانب توفى سنة ٨٤١هـــ (الأعلام للزركلي) ٢/٧٥.

أيـــام الجمع والأعياد، ويؤم المسلمين في صلاة الجمعة والعيدين، وفعل ما جرت العادة بفعله في مـــثل ذلك على الوجه الشرعي، ولرجل من أهل الخير والدين حافظ لكتاب الله العزيز، يكون إمامـــاً بالجامـــع المذكور في كل شهر ما مبلغه ألف درهم، على أن يؤم بالمسلمين الصلوات المفروضة وصلاة التراويح في كل ليلة من شهر رمضان من كل سنة، وفعل ما جرت العادة به، ولـــستة نفـــر من أهل الخير والديانة حسان الأصوات في كل شهر بالسوية بينهم ألف درهم وثمانمائـــة درهم، على أن يعلن بالأذان المشروع في أوقات الصلوات في نوبته التي يقررها لـــه الناظر، وفعل ما جرت العادة به من تسبيح وتهليل، وصلاة على النبي ﷺ وغير ذلك.

ولأربعـــة نفـــر من أهل الخير والديانة في كل شهر ألف درهم بالسوية بينهم، على أن يكونـــوا فراشـــين بالجامع المذكور، يفعلون ما جرت العادة به من كنس ومسح وبسط وغير ذلك، ويصرف لرجل من أهل الخير والديانة والعفة والأمانة يكون خادمًا للمصاحف الشريفة للجامع المذكور في كل شهر مائتي درهم" [1] .

"والمسجد في الإسلام ليس دار عبادة فحسب، ولكنه إلى هذا مصدر الإشعاع الروحي والعلمـــي للأمـــة، ولا غرو أن كان المسجد هو منطلق الحضارة الإسلامية، فقد كان الجامعة العلمـــية الـــتي خـــرَّجت كل المفكرين والعباقرة في شتى المجالات والذين قادوا مسيرة التطور الحضاري في العالم كله"[2] .

ومـــن المناسب في هذا الصدد أن أؤكد على أن الحضارة الغربية في أصلها مقتبسة من الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس؛ فقد عاش المسلمون أزهى عصورهم الحضارية في الأندلس ولكـــنهم لم يحافظـــوا على تلك الحضارة، وتمت سرقة حضارتهم وادعى الأوربيون — زوراً- نسبتها إليهم بعد أن قاموا بنقلها ودراستها والإفادة منها في شتى المجالات.

"لقـــد كان المسجد منارة سامقة للعلم والمعرفة والثقافة، منارة للإرشاد والتوجيه، وإذا كانـــت الدعـــوة إلى الإســـلام تحتاج إلى رجال ذوي علم وثقافة وفقه عميق لتعليم الإسلام

---

(١) الوقف وأثره التنموي —د. على جمعة ص ١٠٩ — ندوة الوقف بالكويت.

(٢) العرب والحضارة الأوربية — عباس محمود العقاد ص٢٥ - بدون تاريخ طبع- القاهرة.

ومـــنهجه في تأليف القلوب، فإن المسجد كان الموئل الذي يلجأ إليه كل من يريد أن يتفقه في الدين، وكانت حلقات العلم في المساجد في كل مكان من دار الإسلام لقاءات علمية مفتوحة تيسر لكل راغب في العلم أن ينهل منها كما يشاء.

وكان هؤلاء الذين يدرسون في حلقات المساجد ويتلقون العلم عن شيوخ هذه الحلقات هم دعاة الإسلام في داخل دياره وفي خارجها.

ولا شـــك في أن علـــى العلماء أن يخلصوا في القيام بواجبهم نحو دينهم وأمتهم، وأن علـــيهم أن ينهضوا بأمانة التبليغ والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يثقوا في نصر الله وأنـــه – سبحانه – لا يتخلى عن عباده المتقين لأن هذا كله كان وراء اعتصام الأمة بدينها وقـــوتها على الرغم من الضعف الذي كان يحل بالدولة في بعض عصور التاريخ، ولولا المسجد ومـــا حبس عليه من أموال للإنفاق على طلبة العلم والعلماء ما كان لهؤلاء العلماء أن ينهضوا برســـالتهم في اســـتقلالية وغنى عن عطاء أي أحد الأمر الذي جعلهم سلاطين الأمة والعلماء، وليكونوا – بحق – ورثة الأنبياء في الدعوة إلى الله والتمكين لدينه" [1] .

"إن المســـجد كـــان النواة الأولى للدعوة والحضارة الإسلامية، وكانت الأوقاف التي حبـــست عليه من أهم العوامل التي هيأت لهذه النواة أن تؤدى رسالتها في تبصير الأمة بحقائق دينها وفقه شريعتها وفي إعداد الدعاة الذين جاهدوا في سبيل الله" [2] .

"ومـــن الملاحـــظ أنه في صدر الإسلام لم يكن المدرسون يتقاضون راتباً لقاء تدريسهم ولكـــن بمرور الزمن وكثرة المدارس وابتداء إيقاف الأوقاف عليها، كل ذلك جعل للمدرسين رواتـــب شـــهرية وكـــان رؤساء الكليات بالجامعة من خيرة علماء المسلمين وأكثرهم سمعة واشـــتهرت مـــدارس كثيرة بشهرة من درس فيها، وكان هؤلاء العلماء يتسلمون رواتبهم من الأموال الموقوفة على هذه المدارس التي يدرسون بها؛ فالإمام النووي وتقي الدين السبكي وعماد الدين بن كثير كانوا ممن يدرسون في دار الحديث بدمشق.

---

(١) دور الوقف في النمو الاجتماعي–د. محمد عمارة ص ٢٥ .

(٢) من روائع حضارتنا– د. مصطفى السباعي ص ١٢٩– المكتب الإسلامي– بيروت.

أمـــا حجـــة الإسلام الغزالي وإمام الحرمين الجويني والخطيب التبريزي والفيروزابادي وغيرهم فكانوا أصحاب كراسي وعمداء للمدرسة النظامية في بغداد.

أمـــا ابن خلدون فكان ممن درس في الأزهر ثم في المدرسة القمحية، وكان الشيخ نجم الـــدين الخبوشاني يدرس في المدرسة الصلاحية، وكلاهما أسسهما صلاح الدين الأيوبي وأوقف علـــيها الوقـــوف، واخـــتلفت رواتب المدرسين بين الكثرة والقلة، بحسب الإحصاء والمدارس والأوقـــاف وبحـــسب مـــا اشترطه الواقفون لهذه الوقوف، كما أنه قد خصصت للمدرسين مخصـــصات انـــتقال وللإنفـــاق على الخيول والبغال التي تنقلهم بين مراكز سكناهم ومراكز تدريـــسهم، كـــل ذلـــك لأجل إشعار الأساتذة بالرعاية والعناية في سبيل تشجيعهم على الإنـــتاج العلمي والفقهي، وتنمية قدراتهم العلمية، إن هذه النفقات في عصور الإسلام السابقة كانت تجرى من أموال الأوقاف وليست من الخزينة العامة" [1] .

(١) الدور الاجتماعي للوقف-د. عبد الملك أحمد السيد ٢٣٦.